

الأصالة الفكرية لدى الشيخ آدم عبد الله الإلوري من خلال كتابه الإسلام اليوم وغدا في نيجيريا

د. ستوب عبدالله

مقدمة:

يحتل عنصر الفكرة أو الحقيقة منزلة جليلة من بين العناصر المقررة في دراسة عمل فني، يتجلى الاعتداد بها كعنصر مهم في اعتبارها رسالة وجوها، منها تنتشع عناصر أخرى من خيال وعاطفة وأسلوب. فهي ذو أهمية كبيرة في جميع الآثار الأدبية القيمة، لكن هذه الأهمية تنكس في الأدب للعام من التاريخ والنقد والفلسفة والجغرافيا وغيرها أكبر منه في الأدب الخاص الذي يعتد بالخيال في الدرجة الأولى، وتأتي الفكرة فيه سندا وعونا.^١ في وقوفنا مع الشيخ آدم عبدالله الإلوري في مكتباته نلاحظ فيه سمات متميزة وخصائص فريدة سواء في تناول المفردات وتوظيفها أو في تبني الفكرة وتأصيلها أو في الإبداع الفني وخصوبة الخيال وحرارة العاطفة. ولكن أعجب الباحث بأصالته الفكرية وتناوله للحقائق التاريخية أو غيرها، فهو في التعامل مع الفكرة أو الحقيقة مثير الانتباه ومغزي العقول، ومزكي الإحساس لأسلوبه الخاص في بسط الحقائق وتصريح بالرأي وتوضيح الغموض. فهو مؤرخ موسوعي، مطلع اطلاع خبير على الثقافات المختلفة، منها الثقافة الإسلامية في العالم العربي والثقافة الإسلامية في إفريقيا وخاصة الثقافة الإسلامية التاريخية في نيجيريا.^٢

فالباحث في إجلال الأصالة الفكرية عند الإلوري يحتاج إلى قراءة كل إنتاجاته أو جلها والوقوف على ما فيها من النظر الفكري، وذلك ما لا يتم في

بحث واحد أو مقالة واحدة مثل هذه، لذلك نقتصر في هذا البحث على أصالته الفكرية من خلال أحد مؤلفات، وهو: الإسلام اليوم نيجيريا. واختيارنا لهذا الكتاب لتشخيص الرؤية الفكرية عند المؤلف على ما أثاره الكتاب من الضجة في أوساط المجتمع أو ما عقبه انتقادات وردود، لا يغوص هذا البحث في شيء من ذلك ولا يرفع الدفين من الضغائن والعدوان. بل وجدت نفسي من خلال قراءتي وخاصة كتابه قيد البحث أمام عملاق كبير ومفكر خبير لا يفتي عواهنه ولا يقدم قنما ويؤخر أخرى في تبني الرأي أو الفكرة ولا على رأي الآخر أو متكل على فكرة غيره بلا دليل.

ولعل أوضح خاصية عنده في تبني الفكرة هو الإلتزام بالحق والدعوة إليه، فغاياته الإصلاح وبناء الأمة وترسيخ العقيدة العربية. يذل في سبيل ذلك الصعاب ويبدل في تحقيق أهدافه النفس والنفيس، لا يخفت صوته في التصريح بالحق، لا يخف في اللاتم، فتجمع لديه الكثير من الأفكار النيرة والآراء الصعبة يبرهن على مواقفه ويؤيد أصالته في الرؤى والأفكار والاحتكام بعض مواقف متباينة نشير فيها إلى أصالته الفكرية:

المواقف التشجيعية:

أثار الشيخ في الكتاب قضايا مهمة ودعا إليها ونبه على في البلاد إلى استغلالها والاستفادة من الركائز والدرر المصونة قضايا في حقيقتها ليست جديدة في الفقه الإسلامي ولنصور أغفل المسلمون عنها وغرقوا في نوم عميق عنها، وهي في بالخيرات والصالحات إليهم في دينهم ومعاشهم، وقد أحسن

وأحسنوا استعمالها بل استفادوا من ضعف المسلمين وغفلتهم في تشهيرها سلاحا حادا ضدهم. منها قضية دعوة المسيحيين إلى الإسلام وترغيبهم في اعتناقه باستعمال الوسائل المختلفة الموضحة في الكتاب والسنة واستغلال الطرق الإعلامية المتنوعة المرئية والمسموعة والمقروءة، يحكم ذلك كله الحكمة والموعظة الحسنة. ويمثل قوله تعالى: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (آل عمران: ٦٤) نموذجا للآيات القرآنية الكثيرة في هذا الموضوع، أضف إلى ذلك منهج الإسلام في حسن التعامل معهم والإحسان كما جاء في آية الصدقة من نصيب المؤلفة قلوبهم.^٣

يقول الشيخ في هذا الصدد:

ندعو مسلمي نيجيريا وغرب إفريقيا إلى التمسك بالإسلام وندعو غير المسلمين إلى الإسلام لأننا نحب غيرنا كما نحب أنفسنا، حيث لمسنا محاسن الإسلام ومزاياه في العبادات والعادات والمعاملات ولم نستأثر بها وطلبنا أن تعم هذه المحاسن غيرنا^٤

فيحتمل أن غير المسلمين في كلام الشيخ هم المسيحيون والوثنيين، لكن الأول أشد احتمالا إذ جهود الدعاة الإسلاميين في دعوة الوثنيين وهدايتهم في الماضي والحاضر غير مجهولة ولا منكورة، حتى لم يبق منهم في البلاد إلا عدد قليل، أما المسيحيون وهم في المرتبة الثانية في الكثرة بعد المسلمين في نيجيريا لم يوجه الدعاة المسلمون عنايتهم إليهم ولم يجعلوا إيصال الدعوة إليهم في الاعتبار والتخطيط. فدعوة الشيخ في السطور السابقة

تمثل يقظة ووعيا إسلاميا في أداء المسؤولية الدعوية وتبليغ الرسالة الإسلامية، فنعمت الدعوة ونعم التبليغ.

لكن المسيحيين في هذه البلاد قد سبقوا المسلمين في استغلال هذه الفرصة الدعوية للتبشير بدينهم مستغلين الوسائل المختلفة، الإعلامية منها وغير الإعلامية، المبيحة منها وغير المبيحة حتى خاضوا على المسلمين في عقر ديارهم عارضين عليهم بضائع دينهم.

كان الشيخ مفكرا خبيرا وكاتباً قديرا، يؤمن بالسلاح القلمي والجهاد الفكري، يقيم للنشر والكتابة وزنا وأثرا عميقا في التوعية وبعث اليقظة وتعميق الوعي في إصلاح المجتمع وبناء الأمة، وأن بقدرة القلم والنشر والتوعية إحداث النهضة والانقلاب وتغيير أوضاع المجتمع إلى حالة الرقي والتقدم والتحضّر، لذلك يوجه دعوته إلى المفكرين وأصحاب القلم من مسلمي نيجيريا إلى استخدام أقلامهم لتوعية الأمة وبعث العزيمة وإيقاظ الهمم لتقدم البلاد ورقيا، يقول:

فعلى المتتورين والمفكرين من مسلمي نيجيريا أن يصلوا بأقلامهم وأن يكتبوا ما تجيش به صدورهم من خواطر وأفكار حتى يهيئوا بالناس ويفيقوهم من غفلاتهم ويثيروا سواكنهم إلى الحركة...

فعلى أبناء نيجيريا الذين يتعلمون في مصر والسعودية وغيرها من البلاد العربية أن يقتبسوا منها ما امتازت به تلك البلاد من وسائل النهوض والرقي والتقدم ليعملوا على منواله ولينصحووا الأمة والحكومة.

ثم استشهد الشيخ ببعض الأمم التي حققت النهضة والتقدم نتيجة لأقلام المفكرين والمصلحين فيها قائلا:

لأن الثورة الفرنسية الكبرى التي نفضت بها أوروبا ما كان عليها من غبار، إنما هيأ لها أقلام رجال العلم..... والنهضة العربية الحديثة إنما

هياها أقلام محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وعبد الله النديم ومصطفى المراغي وغيرهم.^١ ومن جوانب النقص والتأخر الذي فطن إليها الشيخ عند المسلمين في نيجيريا وهي تمس حاضر الإسلام ومستقبله قضية الاستثمار. ذلك أن الأغنياء من المسلمين في نيجيريا لم يولوا اهتمامهم إلى إنشاء المصانع والمتاجر والمزارع والبساتين أو يشتغلوا بتربية الحيوانات الداجنة سعيا في سبيل محاربة الفقر وتوظيف أبنائهم وتيسير المعيشة وتقديم المشاريع الخيرية من تقديم الأوقاف للمساجد والمعاهد العلمية. يقول:

ونحن نهيب بالأغنياء المسلمين: أن يصرفوا عنايتهم لخدمة الدعوة الإسلامية وتوظيف إخوانهم المسلمين كما يفعل المبشرون للإنجيل والكنيسة وأن يوقفوا الحبوس والأوقاف على المشاريع الخيرية وعلى المساجد والمعاهد. ونهيب بهم ثانيا: أن في الأرض مجالا واسعا لا حجر فيه لإنشاء المزارع والبساتين التي تكون متاعا للناس ولأنعامهم. ونهيب بهم ثالثا: أن تربية الحيوانات الداجنة من الأنعام والطيور للاستهلاك المحلي وللتصدير الخارجي لا بد منها.^٢

يؤكد الشيخ أهمية النظام الاقتصادي ويدعو إلى التمسك به لكونه نظام يستهدف في الإسلام تنمية الإنتاج العام ومضاعفته لضمان إشباع حاجات الناس الأساسية وتمكينهم من تأمين حاجاتهم الكمالية من غير إسراف ولا تبذير، وصولا إلى تقريب الشفقة بين مختلف الطبقات بما من شأنه تحقيق العدالة والرخاء والرفاهية لكل أفراد المجتمع.^٣ كما يشير ضمنا إلى أنواع الملكيات سواء الملكية الفردية أو الملكية العامة أو ملكية الدولة مما سيكون فيها ضمان تهيئة وسائل العمل لكل فرد في الأمة ويضمن له سكنا يأوي إليه ومعيشة تدفع عنه الأمراض، وتكفل له ولأولاده الضمان الصحي والاجتماعي

والثقافي. وهي قضية سبق إلى تطبيقها المبشرون المسيحيون لخدمة دينهم وصالح أمتهم، ولتوفير الوظائف لأبنائهم ثم تهيئة الجو الأمني للسكان يعلوه الحب والإخاء والثقة ويسوده التعاون والتكافل المادي.

ولعل قضية لها علاقة بالسابقة مما أثاره الشيخ في سبيل الرصد لحاضر الإسلام ومستقبله في البلاد، القصور والغفلة من المسلمين في إنشاء المستشفيات التي تخدم الأمة المسلمة، تسير على هدى الإسلام وتعاليمه في التعامل مع المرضى، وعدم إعمال الطاقة والقدرة في الاستغلال والتطوير لما خلفه السلف الصالح في علم الطب، وما وصل إليه علماء هذه البلاد في الاكتشاف للأعشاب والعقاقير والنباتات في معالجة الأمراض كلها، تلك الفكرة التي سبقت إليها التبشير الصليبي وحارب بها الإسلام والمسلمين، يقول للشيخ:

وليس لنا نحن المسلمين شيء يقابل ما عند النصارى من المستشفيات للأمراض الباطنية والعقلية والجسدية والرممية. ولا زلنا حتى الآن نعتمد على ما بناه التبشير من ذلك أو بنته الحكومة، ولا فرق بين هذا وذلك من ناحية خدمة الصليب، وكلها تحمل إشارات الصليب لأحمر على أبوابها وعلى مواصلاتها ومنشوراتها وكانت هذه المستشفيات تفتح أعمالها اليومية بصلوات التتليث ومطالبة المرضى بأن يعتقدوا أن المسيح هو الذي يعطيهم الشفاء وليست الخدمات التي يقدمونها فحسب.^٩

هذه الفكرة بما تتسم بها من الصحة والجدية في واقع حياة المسلمين وما تتركه من الآثار السلبية في العقيدة الإسلامية والشخصيات الإنسانية المسلمة لم تجد الرواج ولا التشجيع من الدعاة والمفكرين مثلما تبادر به هذا المفكر الكبير، ذلك لعنايته الشديدة في تطبيق المفهوم الإسلامي لبناء الأمة المسلمة الخاضعة للقاعدة الإسلامية الأصلية في جميع جوانب الحياة.

تصحيح المفاهيم:

لاحظ الشيخ من خلال تتبعه للحركة الدعوية والاتجاهات الإصلاحية في البلاد أنه يجب تصحيح بعض مفاهيم عن قضايا معاصرة معينة، لإبراز الرؤية الإسلامية الصحيحة تحسم ما تهيجه تلك القضايا من الخلافات والهجمات سواء بين الدعاة أو في أوساط المجتمع، والتي تلحق الضرر وتتأخر بالإسلام وتقطع حبل الوحدة والأخوة الإسلامية، منها رأيه في اتجاه فتوى أبوبكر غومي في الدعوة ووصفه بعدم الاستقامة والزيغ عن المنهج الصحيح في الدعوة، لميله عن دعوة الوثنيين إلى الإسلام وتوعية عوام المسلمين في أمور دينهم إلى التركيز على مهاجمة الصوفيين وتكفيرهم وتهيج تلاميذه عليهم من دون الاعتبار بما لهذه الفرقة من الفضل والسبق في نشر الإسلام والعلم في البلاد، موقفاً بذلك نار الفتنة والعداوة والتفرقة بين العلماء الشماليين.

ويرى عدم الاستقامة والتناقض في هجومه على الشطحات الصوفية مما ورد في كتب الطرق القادرية والتجانية بعد تأييده وموافقة لأحمد بلو في نشر كتاب الشيخ عثمان بن فودي " لما بلغت ستا وثلاثين سنة" الجامع لشطحات الشيخ. كما يظهر تناقض آخر في إنكاره ومحاربته سنة القبض في الصلاة بدليل أن التجانيين هم الذين قاموا بإحياء هذه السنة والعمل بها في شمال مع زعمه في إزالة البدعة وإقامة السنة.^{١٠}

ومن القضايا التي تصدى لها الشيخ ووضح فيها رأيه بناء على المفهوم الإسلامي قضية حجاب المرأة المسلمة التي أساء بعض الناس فهمها فوجب الشرعي فيه، حيث يرى بعض الناس أنه هو لبس المرأة النقاب والقناع في الحين الذي يرى آخرون أنه هو عدم خروج المرأة من البيت

نهاراً. وقد وصل بعض أنصار الرأيين السابقين في نصرة مفهومهما إلى حد الطعن والتجريح فيمن لم يعمل بأحد الرأيين.

وخلاصة رأي الشيخ هي أن الحجاب المشروع في الإسلام هو ستر المرأة جسدها كله ما عدا الوجه والكفين. أما الحجاب بمعنى عدم خروج المرأة من البيت فمن خصوصيات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، في الحين الذي يرى الحجاب بمعنى لبس النقاب والقناع من عادات العرب قبل الإسلام، لم يأمر به ولم ينه عنه، فمن شاء أخذ به ومن شاء تركه.

ترى في رأيه هذا الإنصاف والسداد بالدليل أن عورة المرأة في الصلاة عبر المذاهب الفقهية هي جميع جسدها ما عدا الوجه والكفين. والقضية في الحقيقة لا تحتاج إلى الجدل والنزاع الشديد.

وأقرب إلى الموقف السابق رأيه في جواز حضور النساء المساجد لشهود صلاة الجماعة لأدلة كثيرة من الكتاب والسنة المؤيدة لذلك، وأنه إذ كان يباح لهن الخروج للبيع والشراء ومشاركة الرجال في الحوائج الاجتماعية فكيف لا يباح لهن المشاركة في العبادة، ومما أيد به موقفه قوله: "والذي يظهر من هذه الأحاديث أن النبي لم يكن يمنع النساء من حضور المسجد لصلاة الجماعة في فرض الصلوات وفرض الجمعة وسنة العيدين. فليس بعد ذلك لأحد من الفقهاء كلام ينسخ به ما كان عليه النبي في حياته إلى أن انتقل إلى جوار ربه".^{١١}

الثوابت والحقائق:

من الحقائق التاريخية التي تطرق إليها الشيخ وهي تمثل ظاهرة من ظواهر حاضر الإسلام في البلاد تأسيس جماعة نصر الإسلام، نظر في الظروف المحيطة بنشأتها والإنجازات المحققة فيها، وشخص العقبان

والعرفيل المكتنفة بها، فرأى أنها سجلت النجاح في بداية تأسيسها على يد لمرحوم أحمد بلو في جمع شمل العلماء الشماليين تحت راية واحدة، وفي خمر الإسلام وتعليمه للوثنيين في الشمال، لكن لم يلبث هذا الوضع طويلاً أن -ء- بالتفشل والإخفاق لأسباب ترجع إلى الاتجاهات الدعوية ونظام الرئاسة فيها. حين صرف بعض زعمائها زمام دعوتهم عن الوثنيين والمسيحيين إلى محاربة الصوفيين وتكفيرهم وتهينة جو النزاع الشديد بين الفريقين، وعد من مسبب الفشل حكر منصب رئاسة الجماعة في بيت ملوك صكتو وبأيدي تآمراء في مدن وأقاليم أخرى، ثم إسناد إدارة الشؤون وإصدار القرارات فيها إلى الشخصيات غير العلماء المتعمقين في الإسلام.^{١٢} فيفهم من تصريحات الشيخ وتقريراته أن تقدم هذه الجماعة ونجاحها مرهونان بتغيير الوضع السياسى والاتجاه الدعوي فيها.

ومما يتصل بالقضية السابقة رأيه في تعيين المفتي، فيؤكد أنه بجانب لصواب إعلان جماعة نصر الإسلام الفتوى بإسم سلطان صكتو، وأنه يجب فصل أمر الخلافة والولاية عن الإفتاء في الدين، حيث يقوم السلطان بمهمة الخلافة ويسند أمر الفتوى إلى المفتى العام الذى يختار من العلماء البارزين. وهذا الفصل هو ما عليه الأمر في عهد الشيخ عثمان بن فودي وهو المعمول به في العالم الإسلامى والعربى.^{١٣}

من وفي الحقيقة ليس المسلمون في البلاد سواء في قبول الفتاوى لصادرة من قبل سلطان صكتو لعدم جدارته، فالأخذ بالفكرة يكفل للفتاوى حينئذ قيمتها وأثرها المرجو، ويعلو من شأن المسلمين وتقنمهم.

أما موقف الشيخ من الطائفة الصوفية في هذه البلاد فيتلخص في الإنشادة بهم إسهاماتهم الجبارة في نشر الإسلام والدعوة إليه وتأسيس الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا، والإثبات لهم بالقدح المعلى في تعليم وتوطيد

الثقافة الإسلامية والعربية في المنطقة، وأنه ليس من العدل الإغضاء عن فضلهم وآثارهم أو نسب تأخر الإسلام إليهم فضلا عن محاربتهم وتكفيرهم.^{١٤} هذا الاعتراف لم يمنع الشيخ من التنديد بالمتطرفين من الصوفيين الذين مالوا عن جادة الطريق، لكن مسألتهم مسألة عامة يقع فيها جميع الفرق والجمعيات، فمنهم مقتصد ومنهم ظالم لنفسه ومنهم سابق بالخيرات، وأن كل إمام يؤخذ منه ويرد عليه بأدب واحترام.

ويتناول الشيخ قضية أخرى ليست أقل خطورة من سابقتها في تهديد حاضر الإسلام ومستقبله في البلاد، وهي قضية التعصب القبلي الملاحظ في عدم الثقة والرضى في الدين من المسلمين الهوسويين بإخوانهم اليربويين مما جر بعضهم إلى رفض الصلاة وراء إمام يربوي بناء على الزعم أن اليربويين غير مخلصين في الدين وأن إيمانهم لا يخلو من رواسب الكفر والوثنية أو بدعوى أنهم لا يضربون الحجاب على نسائهم. فحذر على أن هذا الاعتقاد والمعاملة كما تهدد حاضر الإسلام ومستقبله في البلاد وتقطع حبل الأخوة الإسلامية والوطنية معا قائلا: "وإذا كان سادتنا المسلمون لا يعترفون بإسلامنا ونحن أقرب الناس إليهم إخاء في الدين فما هو الحبل المتين الذي يربط الجنوب والشمال؟ فماذا يكون أساس الإخاء والوحدة والشعور المشترك في الآمال والآلام بين أبناء الوطن الواحد؟".^{١٥}

فهذا التصريح من الشيخ صحيح، وهو يخالف القاعدة الإسلامية والتصور الإسلامي الذي لا يفرق بين العرب والعجم ولا بين الأبيض والأسود إلا بالتقوى، وقد نهى الشارع عن التزكية النفسية، "فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" (النجم: ٣٢)، لكن التطور العلمي والثقافي في الشمر والاعتبار بالوضع الحاضر ينبئان بدفع هذا الاعتقاد وقلعه خاصة بين المنقذين من الهوسويين، حيث لا يرون حرجا في الصلاة وراء إمام يربوي.

الخاتمة:

وقفنا في الصفحات السابقة على قضايا متعددة في تأريخ حاضر الإسلام ومستقبله في هذه البلاد، وهي قضايا في ذاتها ليست حديثة أو مستجدة مما ليس لها حل أو جواب في الفقه الإسلامي فحسب، بل تصدى الشيخ إلا لإجلالها وتحديد الرأي الحاسم فيها بإصداره أفكار وآراء متممة بالأصالة والابتكار، غير متطفل ولا عالة على أحد أو مذهب ما أكسبها جدة وبعدا ووعيا. هذا ويتصور بعض القضايا المثارة بالانتماء إلى المواقف التنشيجية مما يكفل السعادة والنقمة لحاضر الإسلام ومستقبله في البلاد من قضية الاستثمار وبناء المستشفيات الخاصة، ومنها ما نوقشت كظاهرة من ظواهر تصحيح المفاهيم الخاطئة أو التنبيه على المخاطر والعقبات المهددة لتقدم الإسلام والمسلمين في نيجيريا، كقضية حجاب المرأة، ومهاجمة الصوفية، وقضية الإفتاء والتعصب القبلي بين المسلمين، وغيرها مما أثبتت أصالة فكرة الشيخ في تناول القضايا وتحديد المواقف المتميزة بالإنصاف والمحايدة والإصابة.

الهوامش والمراجع

- ١- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٢٨
- ٢- آدم يحيى عبد الرحمان الفلاني، رائد الفكر الإسلامي النيجيري في القرن العشرين، مطبعة علي عبد الحميد، إلورن، ٢٠٠٠م، ص ٣٤
- ٣- سورة التوبة: ٦٠
- ٤- آدم عبد الله الإلوري، الإسلام اليوم وغدا في نيجيريا، الطبعة الثانية، مطبعة الثقافة الإسلامية، لاغوس، ٢٠٠٢، ص ١٤
- ٥- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٣٦
- ٦- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٢٨
- ٧- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٤٣
- ٨- فتحي يكن، كيف ندعو إلى الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م ص ١٥١

- ٩- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٤٥
- ١٠- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٨٨-٩٢
- ١١- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ١٤٧
- ١٢- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٨٠
- ١٣- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ١١١
- ١٤- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ١٢٥
- ١٥- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ١٠٥